١٥ ـ قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى
وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur

ســلة حديثه

وصل القائت : ذهب بستور إلى شرق فرنسا يبحث فساد الخمور فأصلحها ، ثم ذهب إلى أواسط فرنسا على نداء الخلالين واستغاثتهم فأصلح ما فسد من صناعة الخل . وما كاد يستقر فى معمله بباريس حتى جاء القدر يدق بابه ، جاءه أستاذه القديم « دوماس » يتطبب لدود القز المريض فى جنوب فرنسا

— ٦ —

فأجابه دوماس : « إن أقليم الحرير فى الجنوب هو مسقط رأسى ، وقد حضرت تواً من هناك . وقد رأيت ، ويا هول ما رأيت ! رأيت بلدى المسكين ، قريتى « أَلياس » المنكودة ، تلك البلاد التى كانت ثرية بالأمس ، زاهية بشجر التوت حتى أسموه الشجر الذهبى ، تلك البلاد أصبحت عراء بلقعا ، وتلك المراص الخضر أصبحت غبراء ذابلة ، وأهلها وهم أهلى أصبحوا لا يجدون القوت» . وكان صوت الشيخ فيه حزن وضيق حتى كاد يتندّى بالدمع وكان بستور يقدّر نفسه ويضعها فوق الرجال ، وكان قليل التقدير للغير ، إلا أنه حفظ فى قلبه إجلالاً خاصاً لدوماس . واعتزم أن يبذل المونة لهذا الأستاذ الشيخ الحزين . ولكن كيف ؟ فبستور فى هذا الوقت لم يكن يستطيع على الأرجح أن يميز دود القز من دود الأرض . بل لقد حدث بعد ذلك الوقت أنهم أعطوه شرنقة حرير فرفعها إلى أذنه وهزها وصاح : « ما هذا ! كأن داخلها شيء ! » . جهلٌ مُطبق بالشرانق والدود

وكَـره بستور السفر إلى جنوب فرنسا ليفحص مرض هذا الدود ، لأنه كَـره أن يَخيب ، والخيبة كانت أبغض الأشياء إلى نفسه . ولكن الجميل فيه أنه برغم كبريائه ، وبرغم اعتداده المرذول بنفسه ، استبقى من صباه حبّ الطفل واحترامَه لمعلمه القديم . فقال لدوماس : « أنا ذا طوع يديك ، فرنى بالذى تريد ، وارْمِ بى حيث شئت من الأرض »

وحزم أدواته ومكرسكوباته ، وحزم ثلاثة أعوان نشيطين من خلصائه ومريديه ، وحزم كذلك أولاده ، ومدام بستور — تلك المرأة الصبور التى لم تكن تشكو أبداً — وسافر بهذه الحمولة كلها إلى حيث الوباء يفتك بالملايين من دود القز ، ويفقر الألوف من الخلق فى جنوب فرنسا . وبلغ « أَلياس » فأخذ يتعلم هناك أن دودة الحرير إن هى إلا دودة كالديدان تغزل حول نفسها ثوباً من الحرير يُعرف بالشرنقة ، وأنها تتحول إلى يرقة داخل الشرنقة ، ثم إلى فراشة ترفض ثوبها الحريرى فتخرج عنه فتتسلق الشجر وتبيض البيض ، وهذا يتفقس فى الربيع التالى عن جيل جديد من دود جديد . واستاء رعاة الدود من جهله الفاضح . وذكروا له أن المرض الذى يصيب دودهم يُعرف بالنـدوة ، وأنه يتراءى على الدود فى صورة بقع صغيرة سوداء كالفلفل . ووجد بستور هناك مئات من النظريات تدّعى كلها تفسير هذا المرض ، ولم يجد من الحقائق الثابتة غير اثنتين ، أولاهما تلك البقع السوداء التى تظهر بظهور المرض ، وثانيتهما كُريّات صغيرة تتكوّن داخل الدودة ، تَصغُرت حتى لا تُرى إلا بالمجهر

وقبل أن يستقر فى مهبطه الجديد ، وقبل أن تستقر أسرته فى بيتها الجديد ، كشف عن مجهره وأخذ يحدق فى باطن هذا الدود المريض ، ولاسيما فى تلك الكُريّات ، وخرج سريعا على أن هذه الكريات عرض ثابت من أعراض الداء . وبعد خمسة عشر يوما من حلوله بـ « أَلياس » دعا اليه أعضاء اللجنة الزراعية وقال لهم : « عندما يحين أوان اللقاح ، ضموا كل انثى وذكر وحدهما ، ثم اتركوها لينسلا وتبيض الأنثى ، فاذا خرج البيض فافتحوا

البعيدون يقيناً ، وبكوا من أجله طويلاً . على أن عمل الكماليين من بعد دل على أن إلغاء الخلافة لم يكن نزوة ثورة ، بل كان الحلقة الأولى فى سلسلة مصنوعة ، والخطوة الأولى فى خطة موضوعة .

ويعتذر بعض المعتذرين بأنه كان لابد للنهضة الأخيرة من جمهورية ، وكان لابد للجمهورية من إلغاء الخلافة ، وهذا عذر أشبه بالذنب .

ويعتذر آخرون بأن الصلة بين الروس والترك وحاجة هؤلاء الى معونة أولئك اضطرتهم الى إلغاء الخلافة ، فهل يرضى الكماليون أن يعدّ عملهم فى الخلافة وما بعدها خطة أملاها الروس عليهم ؟ ما أحسبهم يرضون من أصدقائهم أن يقفوهم هذا الموقف ليدافعوا عنهم : وهذا بعدُ لا يخفف المصيبة التى أصابت المسلمين بالغاء الخلافة

— له بقيــة — عبد الوهاب عزام

بطنيهما وأخرجوا من تحت الجلد شيئاً من شحمه ، وانظروا اليه بالمجهر ، فاذا هو خلا من تلك الكريات فاعلموا أن هذا الزوج من الدود سليم ، وأن بيضه سيُفرخ فى الربيع المقبل دوداً سليماً

ونظر الريفيون الى المكرسكوب وهو يلمع وقالوا : « نحن الزراع لانعرف كيف نعالج مكَنةً كهذه » . وكان فى قلوبهم ارتياب وكان فيها قلة إيمان بهذه البدعة الجديدة ، فمنذئذ تراجع عنهم بستور العالم ، وتقدم اليهم بستور الداهية الخبير بأهواء الرجال ، فقال لهم : « حسبكم ! حسبكم ! واخفتوا أصواتكم حتى لا يتناقل الناس هذه الفضيحة عنكم ! كيف تعجزون يا رجالاً ضخاماً عن استخدام المكرسكوب وعندى فى معملى بنت لا يتجاوز عمرها ثمانى سنوات تعالجه فى لباقة ، وتكشف هذه الكُريات فى سهولة ؟! » . وقرّرت اللجنة شراء مكرسكوبات وانصرفوا يعملون بنصائحه

وذهب بستور يبذل من نفسه لحركة لا تعرف السكون ، فطاف بالمناطق المصابة بالداء يلقى المحاضرات ، ويسأل الأسئلة ، ويعلّم الفلاحين استخدام المجاهر . ثم يعود فى رَجمة الطرف إلى معمله يوجه مساعديه ويزوّدهم بالنصائح فى تجارب لم يستطع هو اجراءها حتى ولا ملاحظتها . ثم يملى فى المساء على مدام بستور أجوبة كتابات وخطباً ومقالات ، ولا يطلع الصباح حتى تراه عاد إلى مناطق الوباء يروّح عن الزراع البائسين ، ويخطبهم ويبشر فيهم بالفرج القريب

ولكن عاد الربيع بغير الفرج والبشرى . وجاء الوقت الذى يبدأ الدود يصعد فيه إلى أفرع التوت لينسج عليها الشرانق فعجز عن الصعود . وقعت الواقعة وخابت الآمال وأنفقت الجهود فى غير طائل ! أنفق هؤلاء القوم الطيبون أيامهم على المكرسكوب حتى نال الكلال من عيونهم وأوجع ظهورهم ، يطلبون الفَراش السالم الصحيح ليُخرج لهم البيضَ الخالى من تلك الكُريّات اللعينة ، فلما حصلوا على هذا البيض السليم ، أو الذى حسبوه سليماً ، فرّخ فخرج منه دود سقيم ، قلّ غذاؤه ، وضعفت شهيّته فقل طعامه ، وذهب نشاطه ، فأخذ يدور حول عيدان التوت عاجزاً عن تسلق أطرافها ، زاهداً فى الحياة وفى أطوارها ، غير آبه لهوى الغوانى الحسان فى مفوّفات الخزّ وجوارب الحرير

وارحمتاه لبستور فى تلك الخيبة : جمع المسكين كل همه لتخليص صناعة الخزّ مما دهاها ، فسار ودار وخطب ، ولم يُبق لنفسه وقتاً يَقْبَعُ فيه فى معمله هادئاً ساكناً يتعرف كنه الداء الذى أصاب الدود . أغراه المجد فخدعه عن العلم ، وأغواه الصيت فصرفه عن الحقيقة ، والحقيقة لا يفوز بها إلا ساخر بالمجد ، عازف عن الصيت ، صبور على العمل ، جَلْدٌ على التجربة المسئمة الطويلة

ودفع اليأس بعض أصحاب الدود إلى السخرية به والضحك منه ، ودفع بعضهم إلى السخط عليه والنيل منه . واسود بياض أيامه ، وطلب الخلاص فى العمل فزاد انهماكا فيه ، ولكنه كان الغريقَ ينهمك فى العوم يرجو النجاة ويبغى الساحل ، ثم يقف هنيهة بعد إجهاد ليحسّ الأرضَ علّه يجد قراراً فلا يجد قراراً .

واختلط عليه أمر هذا الدود ، فقد كان يقع أحياناً على نسائل تسرع فى تسلقها عيدان التوت وتأخذ فى نسج شرانق جميلة فيأخذ منها أفراداً للتشريح وينظرها تحت المجهر فيجدها مليئة بتلك الكريات التى كان يحسبها دليل الداء . وأحياناً أخرى كان يقع على نسائل أخرى من الدود سقيمة لا تكاد تهم بالصعود إلى أفرع التوت ، حتى يعتريها إسهال غازىّ ثم تنضمر فتموت ، فهذه أخذ منها أفراداً للتشريح ونظرها تحت المجهر فلم يجد فيها من تلك الكُريّات شيئاً . فأخذ بستور يتشكك فى اعتبار هذه الكُريّات عرضاً من أعراض الوباء . وزاد الطين بلة والحالة سوءً أن دخلت الفئران إلى دوده الذى كان يُجرى عليه تجاربه فاستطعمته فالتهمته ، وأخذ أعوانه الثلاثة المساكين « ديكو » و « مايّو » و « جرنيه » يسهرون الليل بالتناوب على حراسة الدود واصطياد الفئران . وقد يطلع الصباح فلا يكاد ينصرف كلٌّ إلى عمله ، حتى تظهر السحب فى الغرب قاتمة ، فيترك كلٌّ عمله ويهرول إلى شجر التوت يغطيه من المطر . وكنت ترى مدام بستور فى أعقابهم والأطفالَ فى أعقابها . وبستور المتعب المجهود كان لا يستقر فى الامساء فى كرسيه الكبير المريح حتى يأخذ فى إجابة رعاة الدود المناكيد الذين خسروا كل شيء باتباعهم طريقته فى تصنيف البيض

ومضت أشهر طويلة ثقيلة على هذه الحال ، جاءته بعدها غريزته تحضه على التجريب ، والقَدَرُ يمهد له سبيل الخلاص ، قال لنفسه : « أنا على الأقل نجحت فى الحصول على بعض نسائل من الدود صحيحة سليمة ، فاذا أنا غذيتها على ورق التوت بعد تلويثه بافرازات الدود المريض ، فهل ياترى تموت هذه النسائل السليمة أم تمرض وتذهب ؟ ! » . وفعل هذا فماتت النسائل يقيناً . ولكن غاظه أن التجربة لم تأت بكل الذى حسبه ، فبدل